مكانة أدباء الأندلس وعلمائها عند الأيوبيين
دراسة نقدية

محمد عثمان علي الكيلاني
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة بنغازي، ليبيا.
momammed.alzidany@gmail.com

استلمت الورقة بتاريخ 2021/06/28
وقبلت بتاريخ 2021/08/19
ونشرت بتاريخ 2021/08/25

الكلمات المفتاحية:
المكانة، الأدباء، العلماء، الأندلس، الأيوبيون

الملخص

يقدم هذا البحث نماذج لشخصيات أندلسية تمثل صورة من صور العلاقات الأدبية العلمية بين الأيوبيين والأندلسيين، كما توضح دوافع الأندلسيين في السعي للوصول إلى بلاط الأيوبيين، وهي نماذج أسهم أصحابها في بيان الوجه الأندلسي الناصع الجاد علما وأدبا، وإن كان بعض علماء الأندلس قد اغتاظوا من مكانة عالم أندلسي في بلاط الأيوبيين، إلا أن هذا الغيظ وما تبعه يعكس اشتهار أعلام الأندلس الذين اتصلوا بالأيوبيين، ووصول أخبارهم إلى موطنهم، وتتبع أبناء الأندلس لأخبارهم، فالبلاط الأيوبي كان في ذلك الوقت محط أنظار كثير من المسلمين؛ لارتباط اسمهم بفتح بيت المقدس، ولما بذلوه من جهاد صادق، طبّق ذكره الآفاق.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد:

فلم تكن الأندلس بمعزل عن بقية العالم الإسلامي، وإن كان موقعها الجغرافي فرض عليها استقلالية عمّا جاورها من بلدان، بيد أن رحلات العلماء، وطلاب العلم استمرّت منها وإليها، ورحلات الحجاج والتجار أيضا، وقد احتفظت لنا كتب تواريخ الأدب وتراجم العلماء والأدباء بأسماء كثيرة لمن دخل الأندلس، وغادرها.

لا يخفى على متتبع تاريخ الحقبة الأندلسية ما اكتنفها من حوادث وتقلّبات سياسيّة من فتحها إلى سقوطها، فشهد خلال ثمانية قرون دولا كثيرة، وثورات عديدة، وانقسامات قبلية، وصراعات سياسية، واضطرابات اقتصادية، دعت الأندلسيين للخروج مهاجرين، فكانت وجهة بعضهم الدولة الأيوبية، حيث ذاع صيتها وصيت سلطانها صلاح الدين بسبب ما اشتهروا به من محاربة الصليبيين، وفتح بيت المقدس، ثم إن مِنْ نخب أهل الأندلس - أدباء وعلماء- مَنْ قصدهم ، وعلت منزلته عندهم.

أسباب اختيار الموضوع:

إنّ ما دعاني للبحث في هذا الموضوع تلك العلاقة التي قامت بين الأندلسيين والأيوبيين على مستوى أعلام الأندلس والسلطة الأيوبية، وهي علاقة لم تنل حظها من التبيين، ولم تُدرس –حسب علمي- دراسة مستقلة وافية.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في جمع نماذج من أعلام الأندلس علما وأدبا؛ بغية الوقوف على طبيعة العلاقة بينهم وبين السلطة الأيوبية، وبيان أسباب السعي لنيل تلك المكانة.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى بيان مكانة النخبة الأندلسية المهاجرة عند سلاطين بني أيوب، وبيان رؤية هذه النخبة المهاجرة للمكان الجديد، وما تستحقه فيه من مكانة.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج النقدي من خلال تتبع سير نماذج من الأعلام الأندلسية في العلم والأدب، ورصد أخبارهم مع السلطة الأيوبية، ومن خلال تحليل النصوص النثرية والشعرية التي نقلت إلينا هذه الأخبار؛ للوقوف على طبيعة المكانة التي طمح إليها الأندلسيون، وكيف بُنيت علاقاتهم لتحقيق هذه الغاية.

الدراسات السابقة:

قد رجعت إلى أمهات الكتب الأندلسية لجمع نماذج عاصرت السلطة الأيوبية، كالذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، للمقّري، واختصار القدح المعلى، والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابع لابن سعيد، بالإضافة إلى كتبه الأخرى، كما اعتمدت على دراسات حديثة لبعض الأعلام، كالرسالة العلمية التي درست ابن سعيد الأندلسي.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، ففهرس المصادر. أما المقدمة فوطّأت فيها للموضوع، ثم تحدثت في المبحث الأول عن أسباب هجرة الأندلسيين. وعن أحوال الأندلسيين في ظل حكم الموحدين. وفيه بيّنت طبيعة الحياة الأندلسية في ظل الحكم الموحدي وما شابه من عوامل الانهيار، أما المبحث الثاني فخصصته للحديث عن الأدباء والعلماء الأندلسيين عند الأيوبيين، وأردفت ذلك بخاتمة، فقائمة للمصادر والمراجع.

المبحث الأول: هجرة الأندلسيين، وأحوالهم في ظل الحكم الموحدي:

1- أسباب هجرة الأندلسيين:

قد اختلفت أسباب رحلة الأندلسيين إلى المشرق، وهجرتهم إليه، فمنها ماكان طلبا للعلم، وما تعلّق به من نسخ الكتب، وتوخي إجازة العلماء الأفذاذ، ومنها ما كان بدافع اقتصادي للتجارة، ومنها ما كان بدافع سياسي في السفارات الرسمية، ومنها ما كان لغرض ديني وهو رحلة الحج[1].

أما آخر عهد الأندلسيين بالرحلة خارج الوطن فكان إثر سقوطها سنة 998ه، وقبله عندما سقطت المدن الكبرى كقرطبة سنة 633هـ،[2] فقد كانت "العاصمة التي تثدار منها الأندلس على مدى زمن نيف على الثلاثة قرون، من لدن عهد الولاة، ومرورا بعهد الأمراء وانتهاء بزمن الخلافة، التي احتضنتها قرطبة، ورعت براعمها يافعة، واستفادت من شبابها الدافق بالحياة، والعطاء، إلى أن عانت شيخوختها، وهرمها فاحتضرت بين أحضانها، وأسلمت أنفاسها في قرطبة التي ترعرعت فيها"[3]، كما كان لسقوط إشبيلية سنة 646هـ،[4] أثر بالغ في نفوس الأندلسيين، فقد كانت "مركزا من مراكز العلم والحضارة خلال كل العهود بالأندلس، والكتب التي أرّخت للعلم، والحضارة الإسلامية العربية غنية بالأسماء المنسوبة إلى إشبيلية"[5].

فسقوط هذه المدن العظيمة علميّا وسياسيا واقتصاديا أثّر في نفوس الناس، فرثاها الشعراء بقصائد شاجية؛ فهي معقل صباهم ونشأتهم، ومنهم من جعل رثاءه للأندلس كلها بعد سقوط أهم مراكز قوتها، وهذا جعلهم يرون المستقبل بمنظار سوداوي، فكل محاولات استنهاض الهمم للجهاد، ودحر العدوان آبت بخيبات أسهمت في خروج عدد من نخب أهل الأندلس منها؛ بحثا عن مكان آمن، ومكانة مأمولة، وهربًا من بطش الفرنجة وظلمهم، وما حبّره الشعراء في رثاء مدنهم، وأندلسهم يقف شاهدا على معاناتهم ومأساتهم.

[1] - ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أحمد بن محمد التلمساني المقَّري، تح: إحسان عباس، دارصادر، بيروت، 1988م، 5/3 وما بعدها. حيث ذكر المؤلف طائفة من أخبار وسير من رحل من الأندلس إلى المشرق، وفي ثناياها تستفاد أسباب الهجرة.

[2] - ينظر: نهاية الوجود العربي في الأندلس، علي حسين الشطشاط، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2001، ص47.

[3]- رثاء المدن في الشعر الأندلسي، عبد الله محمد الزّيّات، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1990م، ص135.

[4] - ينظر: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1967م، 613/6.

[5] - رثاء المدن في الشعر الأندلسي، عبد الله محمد الزّيّات، ص303.

من خلال هذه الرحلات تواصل الأندلسيون مع غيرهم، ومنهم من كانت له مع الأيّوبيين علاقات، وجرت بينه وبين ملوكهم وأمرائهم أحداث، حاولتُ في هذا البحث رصد نماذج منها تبيّن طبيعة العلاقة بين الأندلسيين- أدباء وعلماء- وبني أيوب.

قد بحثتُ في سير عدد كبير ممن غادر الأندلس، وكانت له علاقة مع الأيوبيين، وإن كانت أسباب رحلتهم إلى بني أيوب مختلفة، فمنهم من لم يقصد الذهاب إليهم لكنّ أحداثًا جرت جعلته يخاطبهم أو يمدحهم.[1] ومن جهة أخرى يوجد مَن هرب من حكم الأيوبيين قاصدا الأندلس، فثمة مصريون فاطميون فرّوا من صلاح الدين الأيوبي إلى الأندلس[2] كما شهدت تلك الحقبة سفارات رسمية بين الأيوبيين والموحدين ملوك الأندلس والمغرب.

فقد أحسّ صلاح الدين الأيوبي بضرورة الاستعانة بمسلمي المغرب والأندلس في صدّ حملات الصليبيين على بلاده فأرسل الرسل والكتب للموحدين في ذلك[3]، ولم تعر السلطة الموحدية اهتماما لطلبه. فقد أرسل صلاح الدين ليعقوب الموحدي "شمسَ الدين بن مُنقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، فلم يجبه إلى ما طلبه، وكل ذلك في سنة 587هـ"[4] .

ومما يظهر جانبا من إقصاء النخب الأندلسية في ظل الحكم الموحدي، أنه عندما احتيج إلى رجل عالم أديب يجالس ابن منقذ رسول صلاح الدين، وقع الاختيار على الأديب أبي العباس أحمد عبد الكُورائِيّ، "فما أتيح لأحد مجالسته سواه"[5]، ذلك أنه من مراكش عاصمة الدولة، فأقصي باختياره وحده علماء وأدباء أندلسيون مرموقون.

2- الأندلسيون في ظل حكم الموحدين:

شهدت الأندلس عهدا جديدا في تاريخها في ظل دولة الموحدين التي نشأت في المغرب، انتعش فيه الأدب العربي؛ إذ إنّ حكام الموحدين اهتموا بالأدب والعلم فوجد الشعراء ضالتهم في مدح سلاطين بني عبد المؤمن وأمرائهم.

لعلّ ما شهده جبل الفتح عند مقدم علي بن عبد المؤمن إليه - في زيارته الأولى بعد تولّيه الحكم- دليل على ازدهار الشعر، وتشوّف الشعراء إلى من يمدحونه فيصلهم ويعرف مكانتهم، فقد كان جمعهم وقتذاك كبيرا، ولا وقت يكفي كل شاعر لإلقاء مدحته، فاكتفوا بإنشاد مطلع القصيدة، ووضع رقعتها أمام عبد المؤمن الموحدي الذي ذكر أنه انتقد بعضها بحسه النقدي وذوقه الأدبي، كما فعل مع الشاعر ابن سيّد اللص الذي مدحه بقصيدة مطلعها: (البسيط)

غَمِّضْ عَنْ الشَّمسِ واسْتَقْصِرْ مدى زُحَلِ

وَانْظُرْ إلى الجبَلِ الرّاسي على جَبَلِ[6]

وبعد أن سمع عبد المؤمن هذا المطلع قال له: "لقد ثقّلتنا يارجل! فأمر به فجلس"[7] ، وذكر عبد الواحد المراكشي أنّ هذه "القصيد من خيار ما مُدح به؛ لولا أنّه كدّر صفوها بهذه الفاتحة"[8]، وهي قوله: غمّض. ثم كثرت الرقاع أمامه إلى أن حالت بينه وبين القوم. إن مثل هذه الأخبار تبين مكانة الأدب والأدباء في أول عهد الموحدين، وتظهر عناية الموحدين بالأدب، وتذوقهم له.

ثمّ توالت عناية حكام الموحدين بالعلم والأدب، وتوثّقت صلتهم بالأندلس، وبإشبيلية تحديدا، فهي عاصمة ملكهم في الأندلس، وكان يُولّى عليها أولياء عهد الحاكم؛ لموقعها الاستراتيجي في الربط بين العدوتين، وبذلك

[1] - كما هو الحال مع ابن جبير الذي سيأتي ذكره .
[2] - ينظر: التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، تح: عبد السلام الهرّاس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1995.، 150/4.
[3] - ينظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين)، عبد الواحد المراكشي، تح: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث، دت.، ص366.
[4] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 444/1-445.
[5] - الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، علي بن موسى بن سعيد، تح: إبراهيم الأبياري، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت، ص100.
[6] - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص286.
[7] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.
[8] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

تأكدت مكانتها السياسية والعلمية. كما كان أمراء الموحدين يتأدبون- في صغرهم- على يدي علمائها وأدبائها، فتوثقت بذلك الصلة بينهم وبين أهل إشبيلية وأهل الأندلس كلها. ومن مظاهر الاهتمام الموحدي بالأندلس أن أول مرصد فلكي في أوروبا ابتناه المنصور الموحدي سنة592هـ في إشبيلية.[1] كما ازدهر العمران بأشكاله المتنوعة، وازدهرت العلوم، وانْتَشَتْ الصناعات والحرف.

على الرغم من ازدهار الأندلس في مختلف النواحي زمن الموحدين نجد أن اختلالا سياسيا بدأ يدبّ في مراكز قوتها في المغرب الأقصى، وعاصمتهم فيها (مراكش)، وكان الصراع على السلطة سببا في تدهور أوضاع الدولة السياسية، ممّا جعل أعداء الأندلس يقتنصون الفرصة معتدين على حواضر الأندلس، واستمرّ الاعتداء في ظلّ ضعف السلطة الموحدية وتشتّت أمرها إلى أن سقطت الأندلس، فهاجر جلّ أهلها باحثين عن مكان جديد آمن.

وسأعرض فيما يأتي طائفة من أعلام الأدباء والعلماء الأندلسيين الذين اتصلوا بالأيوبيين؛ لأقف بعد ذلك على مظاهر العلاقة بينهما، ومكانة النخب الأندلسية عند الأيوبيين، كما أن جمع هذه الأعلام ييسر الطريق لمزيد بحث في هذه العلاقة وأسبابها ونتائجها.

المبحث الثاني: الأدباء والعلماء الأندلسيون عند الأيوبيين:

ذكر المقّري أن سلاطين بني أيوب اشتهروا "بالفضل وحب الفضلاء وقول الشعراء"[2]، ثم إن الأندلسيين اشتهروا بالعلم والأدب والمروءة، وعند ظهور سلطان الأيوبيين في مصر كان لزاما على خطباء المساجد الدعاء للعباسيين على المنابر؛ فهذا عهد جديد طُويت فيه صفحة الفاطميين وبدأت صفحات الأيوبيين تسطر بالجديد والمرتقب، وفي أثناء طوي الصفحة يشعر كثيرون بالتردد، والخوف، فيقدمون رجلا ويؤخرون أخرى، فالعصر الفاطمي لم يكن سهلا، والدعاء لغيرهم على المنابر أمر كبير لا يجرؤ عليه إلا رجل مقدام مؤمن بعقيدته لا يخاف في سبيلها أحدا.

اليسع بن عيسى الجياني:

في هذا التوقيت تحديدا تتجلى روح المبادرة، ويعقبها مكانة سامقة للمبادر في حضرة الأيوبيين، حيث أصبح صلاح الدين وزيرا للعاضد الذي مرض "مرض الوفاة، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين، فأقام الخطبة لبني العباس في أول محرّم سنة 567ه ولم تمض إلا أيّام حتّى تُوفي العاضد في يوم عاشوراء. وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية"[3] وهذا ما فعله العالم الأندلسي "اليسع بن عيسى بن حزم بن بن عبد الله الغافقي الجياني، أبو يحيى"[4]، وهو مؤرِّخ وعالم بالقراءات "انتقل أبوه من جيان إلى المريّة. وسكن هو بلنسية، ثمّ مالقة، ورحل إلى مصر، فاستوطن الإسكندرية، ثمّ القاهرة"[5]. وقد كان "ففقيها مفتيا محدثا مقرئا نسابة، أخباريا، بديع الخط"[6].

يذكر المؤرخون أنه "أول من خطب بمصر على منابر العُبيديين بالدعوة العباسية. عند نقلها. وكان غيره من الخطباء قد تهيّبوا الموقف، فلم يجرؤ على الخطابة غيره"[7]، وذكروا أن السلطان صلاح الدين الأيوبي قدّر له هذا هذا الصنيع، وأكبره، فعرف قدر الرجل ومنزلته، ووضعه في مكانته التي يستحقها، فكان يكرمه، ويسمع قوله، ويقبل شفاعته، وقد توفي في مصر سنة 575ه. وقد ألف لصلاح الدين الأيوبي كتابا أسماه (المغرب في محاسن المغرب)[8].

إنَّ مبادرة العالم الأندلسي اليسع بن عيسى في مصر بالخطبة للعباسيين في ظل خوف الناس وتوجسهم مما قد يقع- والحاكم الفاطمي (العاضد) مازال حيا وإن كان مريضا- تُحسب له، وقد ذكرها صلاح الدين له، فرفع قدره،

[1] - ينظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999م، ص130.
[2] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 299/2.
[3] - عصر الدول والإمارات مصر، شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، 1999، ص26.
[4] - الأعلام، خير الدين بن محمد بن محمود بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط5، 2002، 191/8.
[5] - المرجع السابق، 191/8.
[6] - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط1، 1986، 413/6-414.
[7] - الأعلام، خير الدين الزركلي، 191/8.
[8] - ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وهذا يفسّر جانبا من جوانب الحضور الأندلسي في حضرة الأيوبيين، فهو حضور جاد مبادر شجاع، ولعلّ هذا الموقف وأمثاله سيجعل للأندلس والأندلسيين مكانة عند بني أيوب.

عبد المنعم الغساني الجلياني:

يعرف عبد المنعم هذا بحكيم الزمان، وهو من وادي آش[1]، وهو "عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن أحمد بن خضر بن مالك بن حسّان"[2]، وقد ولد بقرية جليانة "وقدم إلى القاهرة، وسار إلى دمشق وسكنها مدّة، ثم سافر إلى إلى بغداد فدخلها سنة 601ه، ونزل بالمدرسة النظامية"[3]، وقد ذاع ذكره وكتب عنه الناس كثيرا كما ذكر المقّري[4]، و"كان أديبا فاضلا، له شعر مليح المعاني أكثره في الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات، وكان طبيبا حاذقا، وله رياضات ومعرفة بعلم الباطن، وله كلام مليح على طريق القوم، وكان مليح السّمت، حسن الأخلاق، لطيفا، حاضر الجواب"[5]. وقد ولد 531ه، وتوفي بدمشق سنة 602هـ.[6]

هذه الشخصية الأندلسية الجامعة لعلوم ومعارف كثيرة كالطب والكيمياء والأدب شعره ونثره، وجدت مكانا ومكانة عند صلاح الدين الأيوبي الذي كان يجله ويحترمه[7]، ولعبد المنعم فيه مدائح كثيرة أشهرها المدبّجات وتسمى منادح الممادح وروضة المآثر في خصائص الملك الناصر، ومشارعَ الأشواق، وله عشرة دواوين نظما ونثرا، وله تآليف في الطب وصفات الأدوية.[8]

ويبدو أن علاقته بالناصر صلاح الدين جيدة وطيدة، ومما بقي من شعره فيه أبياتا بعث بها إليه وقد جرح فرسه، وهي: (الطويل)

أيَا مَلِكًا أفْنَى الْعُداةَ حُسامُهُ

وَمُنْتَجَعًا أقْنى العُفاةَ ابتسامُهُ

لِقاؤُكَ يَوْمًا في الزَّمانِ سَعادَةٌ

فَكيفَ بِثاوٍ في حماكَ حِمامُهُ

وَعَبْدُكَ شاكٍ دَيْنَهُ وَهْوَ شاكِرٌ

نداكَ الذي يُغْني الغَمامَ غَمامُهُ

وَلِيْ فَرَسٌ أصْماهُ سَهْمٌ فَرَدَّهُ

أثافِيَّ رَبْعٍ بالثَّلاثِ قِيامُهُ

تعمّرَ فيهِ بالجراحةِ ساحَة

وعُطِّلَ فيهِ سَرْجُهُ وَلِجامُهُ

أتينا لما عَوَّدتنا مِنْ مكارمٍ

يَلوذُ بها الرّاجي فيَشْفى غَرامُهُ

---

[1] - جليانة من عمل وادي آش. ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 614/2، و المقتضب من كتاب تحفة القادم، محمد بن عبد الله بن الأبار، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1989م، ص143.

[2] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 635/2.

[3] - المصدر السابق الصفحة نفسها.

[4] - ينظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[5] - المصدر السابق، 635/2-636.

[6] - ينظر: فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1973، 407/2.

[7] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[8] - ينظر المصدر السابق، 407/2-408- 409. والأعلام، خير الدين الزركلي، 167/4

فَرُحْماكَ غَوْثٌ لا يَغيبُ نصيرهُ

وَنُعْماكَ غَيْثٌ لا يُغِبُّ انْسِجامُهُ[1]

إن موضوع النص (فرس جريح) لا يُستساغ أن يخاطِب به شاعرٌ ملكا في مقام الناصر صلاح الدين إلا إذا كانت العلاقة بينهما تسمح بذلك، فالشاعر يمكن أن يعدد موضوعات مدحته بما تعارف عليه أهل صناعة المدح من ذكر شجاعة، وكرم، وغير ذلك من موضوعات متّبعة معروفة، وشاعرنا آثر الحديث عن موضوع فرسه وما تعانيه من جراح متخلصا بذلك إلى مدح صلاح الدين، فقد عوّده العطاءَ الذي لا ينقطع كالغيث الذي لا يغبّ انسجامُهُ، فالدّالة بينهما سمحت باستثمار هذا الموضوع الطريف في مخاطبة الملوك، وهو ما يشي بمكانة الشاعر عند ممدوحه الذي سبق الحديث عن احترامه وإجلاله له، غير أن عبد المنعم على الرغم من ذلك يظل شاعرا مادحا طالبا للنوال. ومن قوله مادحا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة: (الطويل)

وَلا ملك يأتي كيُوسفَ آخرًا

كَما لمْ يَجِئ مثْلٌ لَهُ في الأوائِلِ[2]

ابن جبير:

هو محمد بن أحمد بن جبير صاحب الرحلة المشهورة،[3] وقد اشتهرت له في صلاح الدين الأيوبي قصيدتان، ودافعه في القصيدتين يختلف عن دافع الشعراء المادحين، فهو لا يقصد المدح لذاته، بل يجعله مطية لمعالجة موضوعات تهم الناس، فابن جبير يهدف إلى الإصلاح والإسهام في رفع الظلم عن الناس، وقد وجد في مخاطبة صلاح الدين تيسيرا لهذه الغاية.

كانت رحلة ابن جبير بقصد الحج، فسجل في طريقه مشاهداته، ودوّن أحداثا كثيرة، ورصد ما لقيه بعناية، ومن هذه الأحداث ما تعرض له الحجاج في مصر من مضايقة وإهانة، من خلال مصادرة القائمين على ميناء الإسكندرية لأموال الحجاج،[4] وكل ثمين بحوزتهم "على اختلاف أنواعه وفُتِّش الرجال والنساء وهتكت حرمة الحرم"[5]، ويقول ابن جبير في ذلك: "ولمّا جاءت النوبة وكانت معي حرم ذكرتهم بالله ووعظتهم فلم يعرجوا على على قولي ولا التفتوا إلى كلامي وفتّشوني كما فتّشوا غيري فاستخرتُ الله تعالى ونظمتُ هذه القصيدة ناصحا لأمير المسلمين صلاح الدين الأيوبي ومذكرًا له بالله في حقوق المسلمين ومادحًا له"[6].

إن رحلة ابن جبير هذه جاءت بعد انتشار خبر فتح صلاح الدين لبيت المقدس، وهي رحلته الثانية، فعزم على الحج بعد سماع هذا الخبر[7]، وهذا يشي بمكانة صلاح الدين عنده، وعند كل مسلم أسعده خبر الفتح.

غاية ابن جبير لم تكن المدح في ذاته، فالمدح وسيلة لمخاطبة السلطان ونصحه لما حل بالمسلمين من ظلم وهوان، وهو يذكره آخر كلامه، بعد ذكر النصح والتذكر، وقصيدته طويلة بدأها بمدح صلاح الدين الأيوبي بواقع خمسة وعشرين بيتا، وجاء في آخر قسم مدح فذكر رفعه لمغارم أهل الحجاز؛ توطئةً منه لذكر الصعاب التي واجهها الحجاج، وتمهيدا لنصح السلطان. ومطلع قصيدته: (المتقارب)

أطلَّتْ على أُفْقِكَ الزّاهرِ

سُعودٌ منَ الفَلَكِ الدَّائرِ

فَأَبْشِرْ فإنَّ رِقابَ الْعِدا

تُمَدُّ إلى سيفِكَ الْباتِرِ

---

[1] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 637/2.
[2] - فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي، 408/2.
[3] - ينظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 595/5.
[4] - ينظر: رحلة ابن جبير، ضبطه ووضع فهارسه: محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، 2000، ص20.
[5] - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 598/5
[6] - المصدر السابق الصفحة نفسها.
[7] - رحلة ابن جبير، ص20.

وَعَمَّا قَليلٍ يحلُّ الرّدى

بكُنْدِهمُ النّاكِثِ الغادِرِ

وَخصْبُ الورى يَوْمَ تَسْقي الثّرى

سَحائبُ مِنْ دَمِها الهامِرِ

فَكَمْ لكَ مِنْ فتْكَةٍ فيهُمُ

حَكَتْ فَتْكَةَ الأسَدِ الْخادِرِ

كَسَرْتَ صَليبَهُمُ عنوّةً

فللهِ درّكَ مِنْ كاسِرِ

وَغيَّرْتَ آثارهُمْ كُلَّها

فَليسَ لَها الدَّهْرَ مِنْ جابرِ

وَأمْضيتَ جِدَّكَ في غَزْوِهِمْ

فَتَعْسًا لِجدّهمُ العاثِرِ[1]

يقول بعد أبيات إن الظلم على الحجاج واقع، والجور عليهم بيّن، فهم يُعنّفون، ويسلبون، وكأنهم في الأسر، مما يضطرهم للحلف بأنهم لا يملكون شيئا؛ خوفا من مصادرته غصبا وعدوانا، ويذكر ابن جبير أن عاقبة هذا الحلف على الجائر الذي اضطرهم إليه، كما ذكر عدم احترام النساء وتفتيشهن أيضا، وهو عند هذا الموضوع يركز على حمية الفارس الذي لا يرضى للنساء هذا الإذلال، وهذا مقصده من قصيدته؛ لينبه السلطان لرفع الظلم عن المسلمين، أو لعلّ أحدا يوصل هذه الرسالة إليه، فغاية ابن جبير إصلاحية، ويُفهم من القصيدة أنها لم تُقل في وجود صلاح الدين، وكل هذا يتضح في قول ابن جبير:

يُعَنِّفُ حُجّاجُ بَيْتِ الإلهِ

وَيَسْطُو بِهِمْ سَطْوَةَ الْجائِرِ

وَيَكْشِفُ عَمّا بِأيْديهمُ

وَناهيكَ مِنْ مَوْقِفٍ صاغِرِ

وَقَدْ وَقَفُوا بَعْدَما كُوشِفوا

كَأنَّهُمُ في يَدِ الآسِرِ

وَيُلْزِمُهُمْ حَلِفًا باطِلا

وَعُقْبى اليَمينِ عَلى الْفاجِرِ

وَإنْ عرَضَتْ بَيْنَهُمْ حُرْمَةٌ

فَلَيْسَ لَها عَنْهُ مِنْ ساتِرِ

أَلَيْسَ يَخافُ غَدًا عرْضَهُ

على المَلِكِ القادِرِ القاهِرِ

[1] - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 598/5.، 598/5. والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو القاسم شهاب عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997، 12/3.

وَلَيْسَ على حُرَمِ المسلِمينَ

بِتلكَ المشاهِدِ مِنْ غائِرِ

وَلا حاضرٌ نافعٌ زَجْرُهُ

فيا ذلّةَ الحاضِرِ الزّاجِرِ[1]

ألا ناصِحٌ مُبْلِغٌ نُصْحَهُ

إلى الملكِ الناصِرِ الظّافِرِ[2]

في القصيدة السابقة تتجلى رغبة ابن جبير في الإصلاح، والنصح للسلطان الذي لم يتهمه بإفساد أو إسهام في ظلم، بل برّأه من ذلك كله، وحثّه على رفع المنكر، ثم سجل موقفا ثقافيا أدبيا حين قال إن قصيدته وإن بدأت بالمدح، فإنه لا مقصدية لطلب النوال فيها، فهو يستهجن التزلف بالشعر، أما مدحه ونصحه فبدافع الحب كما يقول:

فَما للمناكِرِ مِنْ زاجِرٍ

سِواكَ وَبالعرفِ مِنْ آمِرِ

وَحاشاكَ إنْ لَمْ تُزِلْ رَسْمَها

فما لكَ في النّاس مِنْ عاذِرِ

وَرَفْعُكَ أمثالها موسِعٌ

رداءَ فخارِكَ للنّاشرِ

وآثارُكَ الغرّ تبْقى بِها

وتلكَ المآثرُ للآثِرِ

نذَرْتُ النّصيحَةَ في حَقّكُمْ

وحُقَّ الوفاءُ على النّاذِرِ

وَحُبُّكَ أنْطَقَني بالقريضِ

وَما أبْتَغي صِلَةَ الشّاعرِ

وَما كانَ فيما مَضى مَكْسَبي

وَبِئْسَ البضاعةُ للتّاجِرِ

لم يكتف ابن جبير الأندلسي بتفرده بالمبادرة في نصح صلاح الدين الأيوبي ضمن قصيدة مادحة، إذ إنه زاد على ذلك تجويده لهذه القصيدة بما استطاع فنيّا وموضوعيا، فهي منسابة رائقة، أسهم بحرها الشعري في خدمة غايتها النُّصْحية، وكأن الشاعر أراد لها الحفظ والانتشار من خلال سلاسة بحر المتقارب.

ابن خروف القرطبي:

هو الشاعر "أبو الحسن عليّ بن محمد بن خروف القرطبي"[3]، وقد نشأ "في قرطبة ورحل قبل أن يعظُم اشتهار ذكره إلى المشرق، فطبّق ذكره هنالك الآفاق، وامتلأت بمحاسنه مسامع الشام والعراق، واستقرّ في آخر أمره بحلب. وقال:

[1] - في رواية أخرى: ألا حاضرٌ نافعٌ زَجْرُهُ فَيا ذلّةَ الشّاهِدِ الحاضِرِ. ينظر الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة، 13/3.

[2] - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 600/5—601.

[3] - الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة، ابن سعيد ص138.

حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ

وَفي حَلَبٍ صَفَا حَلَبي"[1]

يبدو أن ابن خروف ممّن وجد مكانه، ومكانته في المشرق، فتردّد بين حلب والموصل، فمدح الملوك والرؤساء، ويروي ابن سعيد قصته مع الظاهر بن صلاح الدين بقوله: "حضر مرةً بدار العدل في حَلَب عند الملك الظاهر في إحدى ليالي شهر رمضان من سنة أربعٍ وستمائة، وتاج العُلا الشّريف يَعظُه، فأطال على عادته، وكان ابن خروف قد أتى بقصيدة في مدح الظاهر...ثم خرج ليُريق الماء في الظُّلمة فوقع في جُبٍّ طامٍ كان هنالك، وهو جارٍ، فمات فيه، والقصيدة قد ضمَّ عليها يده"[2].

إنّ هذا النصّ يبين حرص الشاعر على مخاطبة الظاهر، فهو متمسك إلى اللحظة الأخيرة من حياته بنصه المادح، لعلّ سبب حياته في المشرق متعلق بنصه هذا الذي يمثل قيمة المدح في أرض الغربة، فمدحه للملوك مدعاة استقرار نفسي ومادي، وبلوغه إلى ملاقاتهم ومجالستهم إنما هو بلوغ للمكانة التي ينشُدها الشعراء المادحون، وكل هذا يجعله حريصا على التمسك بمقابل الحياة باستقرارها وأمانها، وهو الإخلاص في المدح.

ما كان للأدباء والعلماء أن يقصدوا ملوك بني أيوب إن لم يول هؤلاء الملوك لهم اهتماما، فثمة أخبار عن احترامهم للعلم والعلماء، وتشجيعهم للأدب والأدباء، ولعل مقولة صلاح الدين في القاضي الفاضل: "لا تظنّوا أنّي ملكتُ البلاد بسيوفكم، إنّما ملكتها بقلم القاضي الفاضل"[3] تختصر الحديث في هذا الشأن.[4]

ولم ينس الملك الظاهر لابن خروف صنيعه، فأمر "أن تُجعل صلةُ القصيدة في تجهيزه إلى قبره والصّدقة عليه"[5]. ومطلع قصيدته هذه هو: (البسيط)

شَمْسُ الهِدايَةِ في أبْناءِ أيّوبِ

أخْتُ النُّبُوَّةِ في أبْناءِ يَعْقوبِ

هُمُ المَلائكُ في زيِّ المُلوكِ وَهُمْ

أُسْدُ الحروبِ وأقْطابُ المحاريبِ[6]

عمر بن حسن الكلبي:

هو عالم ناظم للشعر، واشتهر بعلم الحديث، كنيته أبو الخطاب (ت 633هـ)، وهو أندلسي تجول في أنحاء الأندلس والمغرب، لكنه لم يجد المكانة التي ابتغاها، فقد اتهمه بعض العلماء بالكذب، وله رحلة مشرقية حطّ فيها الرحال في مصر بعد عودته من العراق، حيث اتصلَ بالعادل أبي بكر بن أيوب الذي استأدبه لولي عهده الكامل[7]، الكامل[7]، ثم توطّدت علاقته بالملك الكامل[8]، وقد ذكر ابن عبد الملك المراكشي أنّه نال عنده جاها عظيما "وحظوةً "وحظوةً عَلِيَّةً، ومكانة كبيرة بَعُد العهد بمثلها، ونال بها دنيا عريضة حتى ليذكر أنه همَّ بنصبه خليفةً، وبعثه رسولا إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد، فتلقاه الناصر أحسن تلقٍّ، وقضى مآربه التي توجّه إليه رسولا بسببها، وأجلّ قدره وأجزل صلته، وأنفذه رسولا إلى بعض ملوك العجم وراء النهر، فنهض بذلك وأحسن السفارة فيه، وعُني هناك بلقاء بعض شيوخ العلم بتلك البلاد، وناظرهم وظهر شفوفه عندهم وتبريزه وبعد صيته وبعد أمره واستفاض ذكره، وجمع من فوائد تلك البلاد ومصنفات علمائها ما لا عهد لأهل بغداد به ثمّ استقر بالقاهرة"[9].

إن نص المراكشي هذا يبيّن أن لأبي الخطاب الكلبي مكانة كبيرة عند الكامل الأيوبي، ويستفاد منه أن الكلبي لم يغره الجاه، ولم يُثنه التقرب من السلطان عن العلم وأهله وتحصيله، فهو يعلم أنه ما وصل إلى هذه المكانة إلا بالعلم، فسعى في تحصيله وتعليمه، ويبدو أن هذه المكانة اشتهرت بين الناس، ووصلت أصداؤها إلى المغرب

[1] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.
[2] - لمصدر السابق، ص139.
[3] - عصر الدول والإمارات مصر، شوقي ضيف، ص412.
[4] - وللملك الأشرف الأيوبي اهتمام بالشعر والشعراء، وله معهم مجالسات، وانتقادات أدبية. ينظر الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة، ابن سعيد، ص17-18.
[5] - المصدر السابق، ص139.
[6] - الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة، ابن سعيد،ص139.
[7] - ينظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 218/8.
[8] - ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 136/3.
[9] - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، 218/8.

والأندلس، فذكرها المراكشي في كتابه، وقد تكون هذه المكانة ذائعة على ألسنة العامة، فضخموها، كما جرت العادة في الروايات الشعبية لسِيَر الشخصيات المشهورة، فعبارة: (أنه همَّ بنصبه خليفة) لا يخفى ما فيها من مبالغة، وهي على الرغم من ذلك تشي بالمكانة السامقة التي نالها هذا العالم الأندلسي عند بني أيوب، ولم تخل حياته من منغصات وخصومات ومؤامرات سعى من خلالها خصومه في الأندلس إلى الوشاية به عند السلطان، فقد ذكر أن أحد خصومه من علماء الأندلس سعى في ذلك فكان جزاؤه أن أمر السلطان بالقبض عليه، " وضُرب بالسياط وأُشهر على حمار، وأُخرج من ديار مصر... ولم يزل ابن دحية على قربٍ من السلطان إلى حين وفاته، وبنى له دارا للحديث، وهي الكاملية بين القصرين، فلم يزل يُحدّث بها إلى أن مات"[1].

قد اشتهر ابن دحية بعلمه، ومؤلفاته، وبمشيخته لدار الحديث الكاملية التي بُنيت لأجله، ويبدو أن ذكره اشتهر في الأندلس؛ لما حاز من مكانة مرموقة في الدولة الأيوبية.

ابن الجنّان الشاطبي:

هو "أبو الوليد محمد بن المشرف أبي عمرو ابن الكاتب أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء ابن الجنّان الكناني الشاطبي"[2]، توفي سنة (675هـ)،[3] فهو من بيت علم ورئاسة وأدب[4]، وقد كان "أديبا فاضلا وشاعرا محسنا، وكان يخالط الأكابر"،[5] وشهد له معاصره ابن سعيد بافتنانه في الشعر وابتداعه في معانيه وصوره، فقال: فقال: "صحبته بمصر وحلب، وأنا أقطع أنه معدوم النظير في الغوص على المعاني المخترعة والمولَّدة"،[6] وهو عالم نحوي[7] تصدر لإقراء النحو، ومرتب في شعراء الملك الناصر.[8]

إنّ ابن الجنان يمثل شخصية العالم الأديب الأندلسي المحافظ على مكانته العلمية والاجتماعية، فهو من بيت رئاسة وعلم وأدب، دفعته ظروف الحياة في الأندلس للسفر بحثا عن مكان جديد يضمن له مكانته التي ألفها في موطنه الأصلي، وقد وجد ضالته في المشرق حيث رحل لمصر ودمشق وحلب وغيرها، ثم رُتّب في شعراء السلطان، وهذه مكانة تضمن له الجاه المألوف، والحياة الكريمة، ثم إنه عالم نحوي تصدر لتدريس النحو، فحاز شرفي العلم، والشعر.

أبو الصلت أمية بن عبد العزيز:

وهو إشبيلي، يقال إنه عاش ستين سنة، "منها عشرون في بلده إشبيلية، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصّنهاجيين، وعشرون في مصر"،[9] أما العشرون المصرية فقد عاشها في خزانة الكتب بعد أن وجّهه صاحب المهدية إلى ملك مصر، فمكث في خزانة الكتب وخرج "في فنون العلوم إماما، وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته، وكان يكنى بالأديب الحكيم"[10].

وقد مدح الأفضل بقوله: (الكامل)

ترْدي بكل فتى إذا شهد الوغى

نثرَ الرّماح على الدروبِ كعوبا

قدْ لَوَّحَتهُ يدُ الهواجرِ فاغْتدى

[1] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 136/3.
[2] - المغرب في حلى المغرب، علي بن موسى بن سعيد، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، 1993م، 383/2.
[3] - ينظر: فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي، 263/3.
[4] - ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 120/2.
[5] - فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي، 263/3.
[6] - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، 383/2.
[7] - ينظر: بغية الوعاة في طبقاة اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، 112/1.
[8] - ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 120/2.
[9] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، 105/2.
[10] - المصدر السابق، 2/ 105-106.

مثلَ القناةِ قضافةً[1] وشحوبا

تخذوا القنا أشْطانَهُمْ واسْتَنْبَطوا

في كلِّ قلبٍ بالطِّعانِ قَليبا[2]

ابن سعيد الأندلسي:

هو الكاتب الشاعر المعروف: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأندلسي، وهو من بيت علم وجاه، تعاقب مع آبائه على كتابة كتاب(المغرب في حلى المغرب)، ومؤلفاته من المصادر المهمة في الأدب الأندلسي والمغاربي، وهو ممن عاش زمن الحكم الموحدي، وما تلاه من تقلبات سياسية، كما اتّسمت حياته بالترحال بحثا عن مكانة افتقدها في موطنه الأصلي، فسافر إلى تونس، والإسكندرية، والقاهرة، وحلب، ودمشق، وغيرها من البلدان، واتصل بالشعراء والأدباء حيثما حلّ، فخُمدت سيرته، وتوثقت علاقته بكبار القوم، ومن ذلك إعجاب ابن النديم الحلبي به عند زيارته مصر، حيث حدثه عن أخبار الناصر الأيوبي وتشجيعه للعلماء والأدباء، وهو الذي "رغّبه في صحبته إلى حلب، فوجد ابن سعيد في ذلك ما شجعه على القيام برحلته الجديدة هذه حيث حلّ ضيفا في بلاط الملك الناصر سلطان حلب (634-659 ه)"[3]، وقد توطّدت علاقته بالناصر، فمدحه بشعر كثير، واستأذنه في الحج "فأذن له وأمر له بخلعة موشية ولم يأمر له بزاد، فخاطبه ابن سعيد بأبيات يقول فيها: (مجزوء الكامل)

يا أيّها الملكُ الذي

نفعَ الزّمانُ بِهِ وضَرْ

أهْديتَ لي التشريفَ لـــ

ـــكن دونه زاد السّفرْ

فكأنّما أهديتَ لي

فصلَ الربيعِ بلا مطرْ"[4]

إن الأبيات السابقة تعتبر من النصوص التي شُهد لها بالابتكار في المعنى، فقد خاطب بها الشاعر الملك الناصر صاحب حلب، "فأمر له الناصر بالزاد بعد أن طرب لهذا المعنى المبتدع، وكان كتاب النفحة المسكية في الرحلة المكية هو النتاج الأدبي لجولة ابن سعيد المشرقية التي انتهت بالحج"[5] وقد ذكر ذلك كمال الدين بن العديم، وحلف على ابتداع هذا المعنى.[6]

إن أخبار ابن سعيد كثيرة في حلّه وترحاله، والذين قابلهم في أسفاره من علماء وأدباء وحكام كثر أيضا، إلا أن دراسة سيرة الشاعر، والتمعن في معاني شعره، تجعل الباحث يصل إلى نتيجة مفادها أنه لم يكن يبحث عن مكانٍ بقدر ما كان يبحث عن مكانه، فهو سليل الرؤساء الأدباء، وقد كانت له مكانته في الأندلس، وبعد أن فرضت ظروف الانهيار السياسي نفسها على الأندلس وأهلها اضطرّ للرحيل بحثا عن مكانة تليق به، وهذا ما يفسر هجاءه لبعض المدن والبلدان التي حلّ بها في رحلاته كمصر، حيث لم يجد مكانته المرجوّة، وهو نفسه ما يفسر مدحه لمدن أخرى وجد فيها شيئا من موطنه الأصلي، فارتاح لها، وفيها، ووصفها بأجمل الأوصاف الشعرية، كدمشق وحلب، فغربة الشاعر نفسية، وغايته التمسك بالجاه والمكانة الأدبية، وهذا ما كان عند غيره من أعلام الأندلس الذين وجدوا في بني أيوب ملجأ لهم، يعترف بحقهم، ويحفظ لهم أقدارهم العلمية والأدبية.

[1] - أرض قَضّة وطعامٌ قضٌّ: فيه حصى وتراب، ولعل هذا يفسر معنى القناة في هذا البيت بأنها مجرى الماء الذي فيه الحصى، وكأن دماء أعداء الممدوح هي الماء الذي جففته يد الهواجر، والقتلى أضحوا متفرقين كالحجارة شاحبين بما علاهم من تراب. ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس، المرتضى الزبيدي، تح: عبد العيم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت، (مادة قضض)، 19/30-31.

[2] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري ، 106/2.

[3] - ابن سعيد المغربي حياته وآثاره، محمد الأنصاري، أطروحة مقدمة للدائرة العربية بالجامعة الأميركية ببيروت لنيل شهادة الماجستير، سنة 1966م، ص76.

[4] - شعر ابن سعيد الأندلسي، ابن سعيد، ص17.

[5] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[6] - ينظر: ابن سعيد الأندلسي حياته وآثاره، محمد الأنصاري، ص218.

خاتمة:

إن اهتمام بني أيوب بالعلم والشعر كان دافعا مهما للجوء أعلام الأندلس إلى دولتهم، كما أن أخلاق هؤلاء الأعلام، ومكانتهم وما اشتهروا به من علم وأدب، كان دافعا لنيل المكانة المرموقة عند سلاطين بني أيوب.

يلاحظ من تتبع علاقة الأندلسيين بالأيوبيين أنّ العلاقة بينهما كانت بين قاعدة نخبوية -تتمثل في علماء الأندلس وأدبائها- وهرم حاكم –يمثله سلاطين الأيوبين وأمراؤهم- ولم تكن علاقة بين سلطتين حاكمتين، لكنها في الوقت نفسه لم تخل من كونها علاقة بين قاعدتين نخبويتين، فعلماء الأندلس وأدباؤها لم يلزموا قصور الحكام فقط، بل أقاموا علاقات مهمة مع أدباء المشرق وعلمائه في مصر وحلب ودمشق وغيرها، بل لعل هذه العلاقات هي ما مهد لهم الوصول إلى الطبقة الحاكمة، ونيل المكانة التي طمح إليها معظمهم، ثم إن الطبقة الحاكمة كانت متذوقة للشعر، مهتمة بالعلم، فهي طبقة مثقفة أيضا.

إن الأديب الرحالة ابن جبير يمثل صورة الأندلسي الذي لا يرجو نيل المكانة بالمدح، فاكتفى بتقديم النصح، وإن كان مسبوقا بمدحه لصلاح الدين، فهو يرى أن مدحه مستحق لا يدخل باب النفاق السياسي لغرض من الأغراض.

كما أن نموذج العالم اليسع الجياني يقف شاهدا على أخلاق أندلسية تتسم بالشجاعة والإقدام والمبادرة، وهذا ما عزّز مكانته عند الناصر صلاح الدين، ولعلّه أسهم في إكبار الأيوبيين للأندلسيين علماء وأدباء.

هذه النماذج التي قدمها البحث تمثل صورة من صور العلاقات الأدبية العلمية بين الأيوبيين والأندلسيين، كما توضح دوافع الأندلسيين في السعي للوصول إلى بلاط الأيوبيين، وهي نماذج أسهم أصحابها في بيان الوجه الأندلسي الناصع الجاد علما وأدبا، وإن كان بعض علماء الأندلس قد اغتاظوا من مكانة عالم أندلسي في بلاط الأيوبيين، إلا أن هذا الغيظ وما تبعه يعكس اشتهار أعلام الأندلس الذين اتصلوا بالأيوبيين، ووصول أخبارهم إلى موطنهم، وتتبع أبناء الأندلس لأخبارهم، فالبلاط الأيوبي كان في ذلك الوقت محط أنظار كثير من المسلمين؛ لارتباط اسمهم بفتح بيت المقدس، ولما بذلوه من جهاد صادق، طبّق ذكره الآفاق.

ختاما أوصي بتتبع مثل هذه الأخبار في سير الأعلام الأندلسية، فهي تكشف وجها آخر للأندلسي المهاجر الجاد الذي يسعى لمكان آمن ومكانة مرموقة.

المصادر والمراجع:

- الأعلام، خير الدين بن محمد بن محمود بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط5، 2002.

- بغية الوعاة في طبقاة اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان.

- تاج العروس من جواهر القاموس، المرتضى الزبيدي، تح: عبد العيم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت

- تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999م.

- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، تح: عبد السلام الهرّاس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1995.

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، ج 4-6 تح: إحسان عباس، ج 1،8 تح: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1973م.

- رثاء المدن في الشعر الأندلسي، عبد الله محمد الزّيّات، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1990م

- رحلة ابن جبير، ضبطه ووضع فهارسه: محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، 2000.

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو القاسم شهاب عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997.

- ابن سعيد المغربي حياته وآثاره، محمد الأنصاري، أطروحة مقدمة للدائرة العربية بالجامعة الأميركية ببيروت لنيل شهادة الماجستير، سنة 1966م.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط1، 1986.

- شعر ابن سعيد المغربي، تح: هالة عمر إبراهيم الهواري، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية، ط1، 2012م.

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج4، 6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1967م.

- عصر الدول والإمارات مصر، شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، 1999.

- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، علي بن موسى بن سعيد، تح: إبراهيم الأبياري، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت.

- فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر الكتبي، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1973.

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين)، عبد الواحد المراكشي، تح: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث، دت.

- المغرب في حلى المغرب، علي بن موسى بن سعيد، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، 1993م.

- المقتضب من كتاب تحفة القادم، محمد بن عبد الله بن الأبار، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1989م.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد التلمساني المقَّري، تح: إحسان عباس، دارصادر، بيروت، 1988م.

- نهاية الوجود العربي في الأندلس، علي حسين الشطشاط، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2001،